

خطاب صاحب الجلالة

في اختتام أشغال الدورة الأولى للمجالس العلمية

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه

حضرات السادة العلماء

ان الجلسة التي نعقدها اليوم تعود بذاكرتنا الى زمن قريب وبعيد في آن واحد، الى زمن قريب لأن صدى اجتماعات والدنا المنعم مولانا محمد الخامس ــ طيب الله ثراه ــ بالمجالس العلمية سواء كانت في فاس أو في مراكش لايزال يرنُّ في آذاننا، لأن تلك الجلسات كان يعقدها سنوياً ــ رحمة الله عليه ــ ابتداء من السنة الأولى للأربعينات حينما انكب المغرب ملكاً وعلماء وشعباً على ثورتهم الفكرية والتعليمية، علماً ويقيناً منهم بأن العلم سيبلغهم مراميهم، وان المعرفة ستطوى أمامهم المسافات التي كانت تحول بين المغرب وبين حريته.

وما زلت أذكر الجلسة الأولى التي فتحها رحمة الله عليه بفاس مع المجلس العلمي لمدينة فاس بمحضر وزرائه اذ ذاك، وكان النقاش محتداً حول برامج جامع القرويين ونظامها وكان اذ ذاك الزحف التقدمي والسلفي والفكري واضحاً لا غبار عليه، وكانت العوائق الرجعية والاستعمارية تحاول يوماً بعد يوم أن ترجع بتعليم القرويين الى عهده السابق، الا وهو عهد الخمول وعهد الفصل بين تعليم الدين وبين تعليم الوطنية نسياناً منهم أو تناسياً ان حب الأوطان من الايمان.

ولم تمر على تلك الجلسات الأولى الا سنة أو سنتان، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، حتى رأينا أهل مراكش وعلماءها وطلابها يقومون بشبه مسيرة الى الرباط محتجين على أن لا يكون لهم نظام كنظام القرويين، محتجين على أن لا تكون لعلماء مراكش نفس العالمية التي حظي بها أهل فاس، ومازلت أذكر أن تلك المنافسة وذلك التسابق ادخل على والدي ــ رحمة الله عليه ــ سروراً عميقا وطمأنينة مستمرة، واستقر في نفسه اذ ذاك ان البذرة التي بذرها أو النار الخامدة التي أذكاها، سوف تعطيان النتائج المتوخاة وتوصلان الى الأهداف المرغوبة.

وها نحن اليوم نجتمع قريباً أو بعيداً بعد تلك الفترة بعلماء مملكتنا الشريفة، لنقول لهم ان المعركة التي خضناها في الماضي للتحرر من الاستعمار ما زالت قائمة، لأن الاستعمار قد اكتسى وجوهاً غير التي كانت له من قبل، ولكن الاستعمار ما زال موجوداً وما زال حياً، استعمار فكري، استعمار الجهل، استعمار سوء فهم الدين، استعمار سوء اجتهاد المجتهدين والمفسرين لهذا طلبت منكم في هذا الاجتماع الأول أن تدرسوا قبل كل شيء الهياكل الادارية والتنظيمية، لأن الأهداف التي نريد أن تصلوا اليها والغزوات الفكرية والعلمية التي نريد ان تقوموا بها هي قبل كل شيء منوطة بالهياكل أو بالدواليب الادارية التي ستضعونها رهن اشارتكم ورهن اشارة المسلمين كافة.

اذن عليكم ان تنظروا قبل كل شيء في حقيقة وكنه وسر المرامي القريب منها والبعيد، مرامي المهمة المقدسة التي هي منوطة بكم.

اننا نعتقد انه يجب أولا أن يعود المغرب في هذا الباب الى سالف عصره، لأن العلم وافشاء العلم لا ينقطع ولا يقف في اي وقت من الأوقات ولا يوضع اي حد من الحدود للسن، فالعالم يجب عليه ان يفشي العلم بين الناس مادام قادراً، عليه ان يدرس ويُبين للناس دينهم، والا فانه اذا كتم علمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة.

ولذا يجب أن تبقى مساجدنا مفتوحة بين العشاءين حتى يتمكن كل مسلم ومسلمة ان يسأل عن شؤون دينه ويوسعَ دائرة معرفته.

يجب أن تكون تلك الدروس منظمة تنظيماً عقلانياً قبل كل شيء، وعلينا أن نعلمَ ان السلف الصالح من أيام المدينة المنورة الى أيام الأمويين ثم الى أيام العباسيين كان لا يحارب الا الجهل، ولا يحارب الا البدع في منطقة جغرافية محدودة، وكان جل الناس ان لم أقل كلهم لا يصغون الى تلك البدع ولا يُعيرونها أي اهتمام، لأن دعاتها كانوا قلة أولا، وكانوا ثانيا معروفين بانحرافهم.

أما الآن فنحن نحارب الانحراف والبدع في كل منعطف من منعطفات ازقتنا نحاربها في كل المنشورات التي تدخل إلى المغرب بأي لغة دخلت.

فلهذا يجب علينا أن نعالج هذا الموضوع لا بأخذ العصا والصياح في الأزقة أو المنتديات باللهم ان هذا منكر والجهر باقامة جماعات للهجرة والتكفير أو التكفير والهجرة او ما شابه ذلك، او الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بكيفية عشوائية.

علينا ان نقرب الشقتين، شقة الدين من شقة المستهلكين لهذا الدين، ولا يمكننا ان نقرب الشقة بينهما إلا إذا كنتم أنتم العلماء الجسر السليم الذي يربط بينهما، ولا يمكنكم أن تكونوا ذلك الجسر السليم إلا إذا حصرتم مهمتكم في الأول عند نقطتين مهمتين.

أولا : درء المفسدة يسبق جلب المصلحة كاماطة الأذى عن الطريق؟ وما هي اماطة الأذى عن الطريق في هذا الباب؟ كل ما من شأنه أن يكون خطراً على حسن العبادات أو اتقانها أو معرفتها أو تطبيقها، أو كل ما من شأنه أن يزحزح المسلم بالوعظ المنفر، لأن المهم حينما يلتقي بكم مسلم هو ان يرجع بعد لقائه مقتنعاً لا خائفاً ولا منافقاً ولا مُرائياً.

اذن عليكم ان تميطوا الأذى عن الطريق، ثم بعد ان تميطوا الأذى عن الطريق تقفون عند هذا الحد، حتى لا نخلق دون أن نشعر رهبانية خاصة، والاسلام ضد الرهبانية «لا رهبانية في الاسلام»، فلا أريد أن يقال عندنا في المغرب رجال الدين كما يقال في بعض البلاد المعروفة، بمعنى أوضح يجب ان لا تكونوا مجتمعاً في المجتمع أو فرقة خاصة من فرق المجتمع، عليكم أن تندمجوا فيه، فأنتم منهم وهم منكم، إياكم ثم إياكم أن تظهروا فرادى أو جماعات أو مجالس أو هيكل كهذا أنكم رجال الدين، وإلا سنصبح في الرهبانية وفي البدع، وسنصبح مخالفين للسنة، تلك السنة التي جعلت من المغرب هيكلا ودولة ونظاماً حصيناً منذ ان دخل الاسلام الى هذا البلد الى يومنا هذا والى أن يرث الله الأرض ومن عليها.



ابتدأوا كما قلت لكم بإماطة الأذى عن الطريق، والاماطة تكون بالتبشير لا بالتنفير، بالاقناع لا بالتخويف.

واندمجوا في الناس، حتى اذا أحسستم منهم خيفة فلا تخافوا، فعليكم أنتم الذين آتاكم الله بسطة في العلم والمعرفة، أن تمدوا اليد، لا أن تنتظروا أن يأتي الناس إليكم، وهذا لا يمنعكم أن تخالطوهم في مذاكراتهم وفي مناقشة جميع المواضيع التي يناقشها أي رجل مع أصدقائه أو مع أصحابه، حتى لا تخلقوا طبقة خاصة في هذه السنين المظلمة الحالكة التي نرى المؤامرة تُحاك فيها بكيفية متقنة وبكيفية مخططة على الاسلام وروح الاسلام وحتى يتم تطابق الاسلام مع الحياة اليومية.

ان الله سبحانه وتعالى حبا هذا الدين الاسلامي برسول (صلى الله عليه وسلم) أراد له أن يعرف كل شيء، فليس هو الرجل الذي عاش في قصور الفراعنة، ولم يعرف اليتم والفقر، وليس هو الرجل الذي شرع في الزواج والطلاق وهو الذي لم يتزوج قط، بل أراد الله لنبينا صلى الله عليه وسلم ــ وأنتم أعلم الناس بهذا ولكن من خلالكم أخاطب زبناءكم والمستهلكين لما ستروجونه والعامة الذين ينظرون الي ويسمعوني ــ أن يكبر في اليتم، وأن ترضعه مرضعة من مجتمع فقير، وأراد الله أن يُعرفه بعد ذلك ما يعرفه الناس اذ ذاك عن طريق النقل، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان أمياً فسخر الله له الوسيلة حتى تمكن من السفر والخروج الى الخارج، ومن معرفة البيع والشراء، وقواعد الاقتصاد وقواعد المعاملات بين الناس لهذا أكد النبي صلى الله عليه وسلم دائماً : «الدين المعاملة» وتمكن من معرفة المال، وبعد ذلك أراد الله له أن يتزوج، وهنا عندي تفسير خاص لزواج النبي صلى الله عليه وسلم من السيدة عائشة.

سأل صحابي النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : يارسول الله إني قد تزوجت، فقال له : طيب، هل تزوجتها بكراً؟ فأجاب : تزوجتها ثيباً، فقال له النبي (ص) : هلا تزوجتها بكراً تداعبها وتداعبك وتلاعبها وتلاعبك، فلماذا إذن أراد الله سبحانه وتعالى أن يزوجه بجدتي مولاتنا خديجة رضي الله عنها وهي ثيب؟ لأن النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يجب أن يكون كاملا فكرياً وحسياً وجسمانياً وهو الذي لم يعرف الذنب ولا النساء حتى تزوج بمولاتنا خديجة، كان في الامكان لو تزوج بكراً أن يقع له ما يقع بسيكولوجياً، وأن يصطدم ببكارة زوجته ويبقى ذلك مكوناً له عقدة نفسانية لا تتلاءم مع الكمال الفكري والجسماني الذي يجب أن يتصف به خاتم النبيين، وهذا تفسيري الخاص، ان كنت مخطئا فأطلب الله أن يسمح لي ولكن هذا تفسيري الذي أقنع به الذين قالوا قبل عشر سنوات في مؤتمر للطلبة ان النبي صلى الله عليه وسلم تزوج مولاتنا خديجة لأنه كان رجل أعمال وكتبوها في لائحات وفي الجامعة وانه لم يتزوجها الا رغبة في مالها، ان إرادة الله أرادت أن لا تقع للنبي صلى الله عليه وسلم أية صدمة فكرية أو جنسية.

هذه زاوية تفتح باباً للبحث والاجتهاد حتى في السيرة أو التعلم، طيب، ثم بعد ذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعله يصيح تلك الصيحة الوطنية تلك الصيحة العجيبة الغريبة من الناحية البلاغية والنحوية، (او مخرجي هم)؟ حينما قال له ورقة بن نوفل : سيخرجك قومك، انها صيحة مواطن جاءت من رجل يحب بلده ووطنه، وبعد ذلك تزوج مولاتنا عائشة فأحبها محبة فوق كل شيء حتى كان يقول فيها صلى الله عليه وسلم : أهداها لي جبريل في قارورة من حرير، وجاءت قضية الافك فعرف النبي صلى الله عليه وسلم لواعج الغيرة والشك، فبرأها الله سبحانه وتعالى، فأعطى بذلك درساً لجميع المسلمين، وهكذا يطول بنا الحديث، المهم أن ديننا لاصق بكيفية مجملة ومفصلة بواقعنا اليومي، فما من شيء وقع لنا في نفسنا أو في بيتنا في معاملتنا الا ونرى ان النبي صلى الله عليه وسلم وقع له مثله، وبعد الوقوع تنزل آية لتفسير المشكل، وتأتي بحله، وان لم

تأت آية جاء حديث وان لم يأت حديث جاء فعل عمومي ومواظب عليه وهو السنة، لأن السنة هي ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم وأظهره في جماعة وواظب عليه، فاذن الله سبحانه وتعالى أعطانا ديناً هو لاصق بحياتنا كل يوم، لماذا نريد أن نخلق مجتمعاً في مجتمعنا؟ ولماذا نريد أن نخلق في الأسرة الكبرى للمغاربة المسلمين أسرة خاصة وخلية خاصة تسمى برجال الدين، وهذا ما نحسد عليه، وهذه هي الأسباب التي جعلت الخارج غير المسلم يتآمر علينا، علماً منه ان فضيلتنا ستبقى لاصقة بجلدنا وروحنا وعقولنا وأفئدتنا لأننا نعيش في اطار القرآن والسنة لا في اطار العبادة فقط بل في اطار المعاملات ولو تغير شكلها وحجمها وأنواعها، ولكن في اطار المعاملات غير المغشوشة، المعاملات التي تجعل كل مسلم على المسلم حراماً : دمه وماله وعرضه.

إذن حضرات العلماء المنتظر منكم أن تقربوا الثقة بينكم وبين المغاربة الآخرين، وهنا أريد أن أدعوكم إلى إستمرار مسيرتنا القرآنية بتنظيم دروس بين المغرب والعشاء في المساجد وبالسبورة بواسطة المدررين، لأن في هذا العمل يجب أن يتحمل كل واحد مسؤوليته، فحتى ذلك الذي لا يحفظ الا القرآن لا بد أن يشاركنا، فعليكم إذن أن تشاركوا المدررين في الجوامع وفي المساجد بين المغرب والعشاء وبالأخص في شهور البرد التي يكون فيها الفرق بين المغرب والعشاء أقل، وثانياً ان أذان العشاء يكون في الساعة السابعة فيمكن تنظيم دروس في محاربة الأمية، الشيء الذي كنا نعمله قبل سنين حتى يمكن لكل أحد أن يقرأ ويفهم، يجب أن أقول لكم اليوم عاش ديننا ولنعش في ديننا علماً منا أن ديننا هو الحافظ لنقاء سرائرنا وذلك النقاء هو الذي يجعلنا مؤتمنين على احترام مقدساتنا، واحترام مقدساتنا هو الذي يجعلنا نسير دائماً في هذا البلد وبهذا البلد على سبيل «ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك».

وإنني لمتفائل جدا بما سنقوم به جميعاً، واعلموا وفقكم الله انني زيادة على محبتي لرجال العلم وتقديري لهم واعتباري لقيمهم الشخصية، ولما يحملونه في قلوبهم من علم، أقول في قلوبهم لأن العلم الذي نتذاكر في موضوعه هو علم وجداني قبل كل شيء، ولأنني تربيت في بيت رعَى العلماء منذ القديم وتربيت في رعاية أب كان يحب ويجل العلماء.

ومن واجباتي الدستورية التي أنا مقتنع بها، ومومن بها ومصر على القيام بها الى آخر نفس : حماية الدين، وبما أن البعض يكون في الكل، فحماية الدين في الرجال الذين يشرفون على تعليمه ونشره وإفشائه بين المسلمين.

فإذا كان طلب العلم فريضة على كل مسلم، فالمطلوب منه أن يعطي العلم فريضة كذلك على كل واحد من أصحاب ذلك العلم.

قلت لكم أنا متفائل جدا ولي اليقين ان الله سبحانه وتعالى سيكتب لنا أجراً على حوارنا المستمر، لوجه الله، وان سنابلنا ستكون تلك السنابل المحمدية القرآنية التي توتي أكلها أضعافا أضعافا.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعطينا على قدر ما يعلمه في قلوبنا من إيمان وتعلق بسنة رسوله واحترام لفضيلة الاسلام وإستماتة في خدمة هذا الوطن وهؤلاء المواطنين، وأسأل الله لي ولكم التوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله.

الجمعة 24 رمضان 1402 — 16 يوليوز 1982